

المحاضرة (٢٠)

المستوى الفني لشعر ابراهيم ناجي

من يقرأ شعر ناجي ويتفحصه بدقة، يستطيع أن يستخلص ثلاث مسائل فنية هي: صدق العاطفة ودقة الصورة وروعة الموسيقى.

وأول هذه المسائل عاطفة رقيقة (لا تحتل العنف وشدة الضغط ' كما يقول طه حسين: وهذه العاطفة ينفرد بها شاعرنا انفراداً عجبياً، دعت محمد مندور إلى ان يحكم على شعره كله فيقول (أنه قصيدة غرام). ودعت محمود حامد شوكت إلى القول (إن حرارة العاطفة ميزة ظاهرة في شعر ناجي).

أما إبراهيم المصري، فيرى أن ناجي (بالعاطفة يعيش ومن العاطفة يستلهم وفي سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب في مناكب القاهرة ليلاً يغشى أنديتها وملاهيها، ويفرح ويهال ويضحك ويبكي. أن شدة إحساس ناجي بالعواطف الرقيقة هي التي تضاعف شعوره بالالم، عندما يعترض طريقه مشهد مؤثر أو فاجعة رهيبية، أو مجرد سماع إنسان يشكو، أو آخر يستجدي أو ثالث يتظاهر بالسعادة. وفي عينيه أثر من مجاهدة الدموع. وهذا هو السر في تشاؤم ناجي، وفي أزمات التمرد والسخط التي تنتابه).

أما احمد هيكل، فيرى أن عاطفة ناجي (عاطفة صادقة، أولاً لأنه قد عاش كل تجاربه التي عبر عنها، ثم هي عاطفة مشبوبة، ثانياً لأنه قد احس تجاربه بكل كيانه، وأخيراً هي عاطفة إنسانية سمحة).

إن ناجي لم يكن شاعراً رقيق العاطفة فحسب، وإنما كن يجسد هذه العاطفة بالتجربة الصادقة التي لم تفرض عليه، وإنما كانت تتبع من ممارسة أدت إليه في كثير من الاحيان أن يقع صريعاً لحبه، فإذا هو يبكي ويشكو وتتأزم نفسه وتشتد عاطفته كما هو الحال في قصيدة (رسائل محترقة).

وأية عاطفة في الحب هذه، تجعل صاحبها كل الناس؟ يقول الشاعر:

ذلك الحب الذي علمني أن أحب الناس والدنيا جميعاً
وجلالى الكون في أعماقه أعيناً تبكي دماء لا دموعاً

وربما كان في قصيدة (قلب رافضة) ما يدل على سمو عاطفته الانسانية واتساع حدودها، وذلك حين يرى أنها ضحية من ضحايا المجتمع.

وكما جمع الدارسون على صدق عاطفته وسموها، فقد اجمعوا على روعة صورته الفنية ودقتها. حتى قال عنها احمد هيكل (أنها حية نابضة نامية يحس غالباً مزج ألوانها وتوجيه

خطوطها وتركيب عناصرها، وربما كانت الصورة عنده أهم وأقيم وسائله التعبيرية، فهو فيها فنان مبتكر أولاً، ورسام بارع ثانياً، وبناء يعرف كيف يركب هذه الصور آخر الأمر).

ويقول احمد المعتصم بالله عن صور ناجي (وقد تتفاوت صور ناجي في الوسامة، والوضوح والالوان والمظاهر، إلا أن صفة واحدة تغلب عليها جميعاً، وهي انها صور حية نابضة) والصور عند ناجي تمثل تياراً جديداً لأنه قد هجر بها الأسلوب المباشر الذي وجدناه عند شوقي وجيله، فهو إذن يعتمد الايحاء، إذ يختفي خلف ثوب شفاف من الرمزية. وربما يكون هذا الأسلوب أثراً من آثار قراءته للشعر الأوربي.

والمعروف أن ناجي قد ترجم ديوان (أزهار الشر) لبودلير. كما أنه قرأ لشعراء الديوان وشعراء المهجر وتأثر بهم.

وأول ما يلفت النظر في صور ناجي هو تشخيص المعاني تشخيصاً حسياً كقوله:

ومن الشوق رسول بيننا ونديم قدم الكأس لنا

وإذا تحدث عن حبيبته ذكر رسائلها فشبها بالطفل فقال:

هدأت رسائل حبهَا كالطفل في أحلامهَا
فحلفت لا رقت ولا ذاقَت شهِي منامهَا

ومن أشد المعنويات التي خصها ناجي بالتجسيد، الهموم والآلام والاحزان، فالحزن له دمع أبدي ينهي الزهرة:

وترى في عمق روعي زهرة قد سقاها الحزن دمعاً أبدياً

ومن مظاهر تأثر ناجي بالرمزيين، استخدام نظرية تراسل الحواس في الوصف. فهذا هو

يجعل للصمت جناحين فيضفي عليه الحركة ويقول:

رفرف الصمت ولكن أقبلت من أقاصي السهل أصداء بعيدة

وفي البيت التالي يجعل للشعاع ماء وللظلال ضفافاً:

وشعاع طوفت في مائه وظلال رسبت في ضفتيه

وحين يبالغ في أنينه وشكواه، يجعل للظلام صدر يضيق بتلك الحال:

كأن صدر الظلام ضاق من كثرة البث كل حين

ولشاعرنا أوصاف غريبة لحالته، فإذا عبر عن قلقه بالحياة، جعل الثواني، على قصرها
رحبة تتسع له ولحبيبته:

أنا إن ضاقت بي الدنيا لثوان رحبة قد وسعتنا

وفي شعر ناجي أوصاف جديدة غريبة من مثل (الطعنة المجنونة) و(الليل الضرير)
و(السراب الخؤون) و(اللانهاية الخرساء) و(الأمانى البيض) و(الهوى المجروح) و(المغرب
الباكي) و(الخصر الجائع) . وهي أوصاف رمزية توحى بالشيء ولا تسميه.
والواقع إن ناجي كان واحداً من الرواد في صورته الفنية بين أبناء جيله، حتى أن بعض
تجديداته قد أثارت جدلاً بين الدارسين.

من ذلك الصورة التي وصف فيها ناجي سأمه وضجره وضيقه بالحياة فقال:

أمسيت اشكو الضيق ولأينما مستغرقاً في الفكر والسأم
فمضيت لا ادري إلى أينما ومشيت حيث تجرني قدمي

ولقد اعترض طه حسين على هذه الصورة. لما فيها من غرابة فكرية. إلا إن معظم الذين
درسوا الشاعر قد أقرّوه عليها وعدوها من الصور المبتكرة .
أما آخر المسائل الفنية فهي الموسيقى التي تشكل إحدى عناصر الصياغة الشعرية،
والتي يجب أن تتميز بالانفعال الذي بدونه يهبط الشعر إلى مستوى النثرية والتقريبية.
وقد حكم الناقد مصطفى السحرتي على موسيقى ناجي، بأنها من النوع الذي يمتاز
بأصوات ارتكازية، فيجمع بين النغمات العالية والمنخفضة .
وهذه الارتكازية تتركز بالعاطفة التي ترتفع وتنخفض بناءً على نوع التجربة التي تعبر
عنها.

من ذلك قول شاعرنا من قصيدة الأطلال:

أعطني حريتي أطلق يدي أنني اعطيت ما استقيت شيء

ثم يقول بعد هذا المطلع:

وهب الطائر عن عشك طارا جفت الغدران والثلج أغارا

فالبيت الاول يمثل الانفعال الشديد، ويظهر فيه العنف والشدة من خلال (اعطني
حريتي) أو (أطلق يدي). وكلماتها ذات نغم عال مرتفع، يختلف عن النغم الهادئ الرقيق
المهموس الذي تعبر عنه كلمات مثل (الطائر) و(العش) و(جفت الغدران).

وأرواح ما يمثله هذا النوع من الموسيقى، ما جاء في قصيدة (العودة) التي سبق أن سجلنا بعض مقاطعها التي تتراوح بين الشدة والقسوة حيناً، وبين اللين والرفقة أحياناً آخر. وإذا كانت الموسيقى تتصل اتصالاً وثيقاً بالأفكار، وتعبّر عنها بما تمتلك من نغم وإيقاع كما تتجاوب مع موضوع القصيدة ونوع التجربة، فإنها لا بد أن تختلف من حالة إلى حالة، طبقاً للحالة الشعورية ونوع التجربة وحالاتها المختلفة، ففي حالة التعبير عن الحزن والاسى، وبث الانين والشكوى، ويختلف التعبير الصوتي، فيكون طويلاً ممتداً ذا نغم حزين ونبرات رقيقة، وتكون الكلمات لينة هفافة لتعبر عن الحالة النفسية المتعبة. أما في حالة التعبير عن الفرح والبهجة والسرور فيكون التعبير الصوتي سريع الإيقاع، وتكون الكلمات قوية مندفة توحى بالانشراح، وتعبّر عن الحالة النفسية التي تصاحبها وموسيقى ناجي لا تتعامل مع الأذن، وإنما تتحدث مع النفس، واقصد بهذا، أنها موسيقى داخلية تتفاعل مع العواطف والمشاعر، أكثر مما تقف عند حدود الصوت، فرنينها بعيد وآثارها لا تقف عند حد الصدى، وإنما هي تنفذ الى اعماق الوجدان والعاطفة ولذلك كثرت في لغته الالفاظ المهموسة، ذات التأثير الإيحائي.

من ذلك تعبير الشاعر عن الظلام بـ (العواء المخيف) و(هدير الامواج) و(عصف الرعب) و(الوحدة الخرساء) و(الفضاء الجهوم). وقد عبر عن الخريف ببعض الصور من مثل (جفاف الروض) و(الظلال القاتمة) و(موت الروض).

وقد رصد محمود حامد شوكت، مسألة التراكيب اللغوية في شعر ناجي، وقال عما ورد منها في قصيدة (رسائل محترقة): (ويلاحظ في هذه القصيدة التراكيب اللغوية الجديدة وبذاتها الفني ودلالاتها النفسية والعاطفية مع اتساق في النغم وتآلفه، مواكباً تدفق العاطفة والحس الوجداني).

والعلاقة بين اللغة عند ناجي وبين الموضوعات والتجارب ليست علاقة مصطنعة، وإنما هي صميمة واصيلة.

أما الاوزان، فعلى الرغم من أن ناجي لم يجدد فيها إلا قليلاً إلا أنه هجر وحده الوزن الذي حافظ عليها شعراء التيار المحافظ، فقد نظم بعض قصائده في أكثر من وزن واحد، لكن الاهم من هذا، ما قيل من ابتداعه وزناً جديداً نظم به قصيدة (عاصفة الروح) التي افتتحها بقوله:

أيـن شـط الرجـاء	يـا عـباب الهمـوم
ليـتني انـواء	ونـهاري غـيوم
اعـولي يـا جـراح	اسـمي الـديان

وهذا وزن من نصف وزن البحر المتدارك.
وأما بالنسبة للقافية، فقد تحرر منها إبراهيم ناجي، على الرغم من محافظته عليها في بعض قصائده ولم يسلك فيها طريقة معينة، فأحياناً ترد مزدوجة، وأحياناً تأتي رباعية وتجيء في بعض الأحيان متغيرة كل مجموعة من الأبيات لكنها في كل حالة كانت منسجمة.
إلى حد بعيد مع طبيعة القصيدة وموضوعها.
وهذه الظاهرة دلالة، وهي أنها تعبر عن شخصيته القلقة المتوترة المنقلة التي لم تثبت على حال.

وهي مهما كان القصد منها، فتعبر عن ناحية من نواحي التجديد، التي شكلت في شعره أصالة متميزة.

المصادر:

- ١- حديث الأريعاء: طه حسين
- ٢- مقومات الشعر العربي الحديث
- ٣- جماعة ابولو
- ٤- ناجي شاعر الوجدان
- ٥- الشعر المصري بعد شوقي
- ٦- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث.